تقرير

خليل حرب
khalilharb66@gmail.com

"مذكرة" تفاهم بعد حرب هوجاء صلحٌ دائم أم هدنة موقتة؟

هي مذكرة تفاهم، وليست اتفاقا أو نهاية للحرب، كما انها ليست اعلانا مطمئنا بأن الصراع لن يتجدد مستقبلا، الا انها تمثل بارقة امل بأن "للصلح مطرح"، وان الحرب الهوجاء التي فرضها دونالد ترامب وبنيامين نتنياهو على إيران والمنطقة، قد لا تظل قدرا دائما

"مذكرة تفاهم اسلام اباد" بين الولايات المتحدة وإيران، وقعت الكترونيا عن بعد في 18 حزيران الماضي، من جانب ترامب والرئيس الإيراني مسعود بازشكيان، اضافة الى رئيس الوزراء الباكستاني شهباز شريف بصفته وسيطا. المذكرة تتضمن 14 بندا، وتعلن بوضوح "وقفا فوريا ودائما للعمليات العسكرية على جميع الجبهات، بما فيها لبنان".

لكن المهم ايضا ان المذكرة فتحت الطريق امام مفاوضات مكثفة مدتها 60 يوما للتوصل الى تسوية شاملة ونهائية ملزمة.

وسرعان ما انعقدت في مدينة بورغنستوك السويسرية، في 21 حزيران الفائت، اعمال الاجتماع الاول للجنة رفيعة المستوى في اطار مذكرة التفاهم، وقادت الى "تقدم مشجع" بحسب تأكيدات الوسيط الباكستاني، لانها اسفرت عن التوصل الى "خارطة طريق" تقود الى الاتفاق النهائي في غضون 60 يوما، وذلك من خلال مسارين، سياسي وفني.

وبحسب التقارير، فقد تجنب الايرانيون التقاط صورة تجمعهم بالوفد الاميركي ونائب الرئيس دي فانس. وقد ادت المحادثات التي شارك فيها دي فانس، ورئيس البرلمان الايراني محمد باقر قاليباف الى نتائج عدة، من بينها بدء اجراءات رفع العقوبات الاميركية عن صادرات النفط الايرانية، والتفاهم حول آلية رفع القيود عن الاموال الايرانية المجمدة، وفتح مضيق هرمز، والخطة الشاملة لاعادة إعمار ايران، والاتفاق على "خلية فض النزاع" المتعلقة بوقف الحرب في لبنان والتي ستتباعها بشكل مباشر كل من قطر وباكستان.

وبينما اعتبر الايرانيون ان هذه الآلية المتعلقة بلبنان، تمثل "الاختبار الحقيقي الاول" لمدى فعالية الجهود التفاوضية في سويسرا، قال فانس ان الوضع في شأن لبنان سيكون موضع نقاش مستمر. ورغم قول فانس ان "إسرائيل يحق لها الدفاع عن نفسها"، الا انه اعتبر ان ذلك يجب ان يتم "وفق آلية لعدم الخروج عن السيطرة"، لأن واشنطن تريد "حماية امن اسرائيل وحماية سيادة لبنان في الوقت نفسه"، معتبرا أن على إيران ان تكبح حزب الله.

وتتولى اللجان المشكلة عبر مجموعات عمل تتولى القضايا النووية والعقوبات. وبحسب المعلن أيضا، فان إيران والولايات المتحدة اقامتا "خط اتصال" حول مضيق هرمز، من اجل "تجنب الحوادث وسوء الفهم بهدف ضمان مرور امن للسفن التجارية" خلال فترة الايام الـ60.

في الإمكان تقسيم نص المذكرة الى جوانب عدة، فهناك البنود العسكرية والامنية التي تشير الى وقف شامل لإطلاق النار، مع تعهد الطرفين وحلفائهما بعدم الشروع في أي حروب مستقبلية والامتناع عن التهديد باستخدام القوة.

في الجانب العسكري ايضا، هناك الاشارة الى تعهد إيران باتخاذ تدابير لضمان المرور الآمن للسفن التجارية من الخليج الى بحر عمان لمدة 60 يوما من دون رسوم، مع بدء استعادة الحركة خلال 30 يوما. الا ان هناك اشارة ايضا الى ادارة المضيق مستقبلا، حيث تلفت المذكرة الى ان إيران "تتعاون" مع سلطنة عمان لتحديد ادارة الخدمات البحرية المستقبلية في المضيق بما يتوافق مع القانون الدولي، و"تتشاور" مع الدول المطلة الاخرى على الخليج.

هناك بند مبهم في المذكرة، حيث الى جانب حديثه عن التزام الولايات المتحدة بإنهاء الحصار البحري على الموانئ الإيرانية تدريجيا خلال 30 يوما، فإنها "تسحب" قواتها العسكرية من محيط إيران بعد ابرام الاتفاق النهائي. ومن غير الواضح ما إذا كانت هذه الاشارة تعني إخلاء القوات الاميركية المتمركزة في قواعد عسكرية في الخليج، أو في المحيط الجغرافي لإيران بما في ذلك تلك التي كانت منتشرة هناك قبل بداية الحرب، او انها تتعلق بالتحشدات التي جاءت الى المنطقة لشن الحرب،

والتي تضمنت حاملات طائرات وفرقاطات بحرية وقاذفات استراتيجية تمركزت خصوصا في اسرائيل.

في ما يتعلق بالجوانب الاقتصادية والمالية في المذكرة، هناك الحديث عن خطة اعمار إيران. وبينما كان المفاوضون الإيرانيون يطالبون بتعويضات عن الدمار الذي لحق بهم بسبب الحرب التي شنت عليهم، فان الاميركيين تجنبوا القبول بمصطلح التعويضات وايراده في المذكرة، لأن ذلك كان سيعني اعترافهم بخطأ وتبعات شن الحرب. يبدو ان التسوية كانت الحديث عن اعادة الاعمار، بحيث تلتزم الولايات المتحدة بالتنسيق مع الشركاء الاقليميين، إعداد خطة انمائية واقتصادية لإيران بقيمة لا تقل عن 300 مليار دولار. من حيث المبدأ، لا يبدو ان الشركات الاميركية ستكون مستبعدة من احتمال المشاركة في خطط ومشاريع اعادة الاعمار.

في ما يتعلق برفع العقوبات، فان المذكرة تنص على ان واشنطن تتعهد بإنهاء كل العقوبات المفروضة (الاحادية الاميركية وقرارات مجلس الامن ومجلس محافظي الوكالة الدولية للطاقة الذرية) وفق جدول زمني ضمن الاتفاق النهائي. إضافة الى ذلك، فان واشنطن تلتزم الإفراج عن الاموال والاصول الإيرانية المجمدة فور تفعيل المذكرة، لتكون متاحة بالكامل للبنك المركزي الإيراني.

وفي ما يتعلق بالملف النووي، هناك اشارة واضحة تقول "تؤكد جمهورية إيران الاسلامية مجددا انها لن تنتج او تحصل على اسلحة نووية". لكن فعليا، المذكرة سمحت بتأجيل البحث في البرنامج الملف النووي الآن، بانتظار الاتفاق النهائي.

في وجه الانتقادات الاميركية والاسرائيلية التي ظهرت مع نشر تفاصيل المذكرة، خرج ترامب مرارا للدفاع عن الاتفاق وطريقة ادارته للمفاوضات والحرب على السواء، لدرجة انه وصفها بأنها "استسلام إيراني غير مشروط"، معتبرا أن الإيرانيين وافقوا على شروط لم يكونوا مستعدين لقبولها قبل اندلاع الحرب. كما اعتبر الرئيس الاميركي ان المذكرة "قوية جدا ومفصلة"، وان الإيرانيين كانوا مستميتين من اجل ابرام الاتفاق. ولم ينس ترامب التذكير بأنه أنهى 8 نزاعات، لكن الحرب مع إيران كانت "الاصعب".

مع ذلك، فان المذكرة تتعرض لانتقادات من شخصيات سياسية واعلامية واسعة في الولايات المتحدة نفسها، اما في إطار موقف الخصومة المبدئي من ترامب، او في إطار النظرة اليها من منطق مصالح الانحياز لإسرائيل، أو في اطار نقد جوهري يستند الى فكرة أن ما فعله ترامب بخوض الحرب ثم التفاوض وما افضى اليه، لم يحقق فائدة اضافية تذكر عما فعلته ادارة باراك أوباما قبل 10 اعوام، وربما بالتالي لم يكن هناك حاجة اساسا لخوض الحرب ضد إيران، وانفاق نحو 100 مليار دولار، وتدمير القواعد الاميركية خصوصا في دول الخليج.

كان من اللافت ان الانتقادات الاميركية للمذكرة جمعت بشكل نادر بين "صقور" الحزب الجمهوري والديموقراطيين ووسائل اعلام بارزة، حيث قال مثلا السيناتور الجمهوري تيد كروز ان المذكرة تمنح طهران الأوكسيجن الاقتصادي الفوري من خلال تخفيف قيود تصدير النفط والافراج عن الاصول المجمدة، من دون انتزاع تنازلات ملموسة اولا. اما الخبير الاستراتيجي ريتشارد هاس، فقد اعتبر ان ترامب بدد اقوى اوراق الضغط الاميركي، لأنه من خلال شن الحرب، استنفد مسبقا ورقة التهديد العسكري، وبما ان النظام الإيراني صمد، فان الولايات المتحدة خسرت ميزة الترهيب بها مستقبلا.

لكن من أبرز الانتقادات التي وجهت الى ترامب، مثلما فعلت صحيفة "واشنطن بوست" مثلا، هي ان هناك قواسم مشتركة فاضحة بين مذكرة ترامب والاتفاق النووي الذي ابرمه اوباما في العام 2015، من حيث تخفيف العقوبات وتحرير الاموال، وهو الأمر الذي امضى ترامب والجمهوريون سنوات في التنديد به ووصفه بـ "السيىء".

الأنكى من ذلك، أن هناك من يرى بأن المذكرة تكرس وضع إيران كدولة على العتبة النووية، أي انها لا تمتلك القنبلة النووية، لكنها في موقع قريب من القدرة على تصنيعها في وقت قصير.

بطبيعة الحال، فسر كثيرون مضامين ما جرى التفاهم عليه نوويا على انه بمثابة انجاز يصب لصالح إيران، تماما مثلما تمكنت طهران من اخراج ملف القدرات الصاروخية وحلفائها الاقليميين من طاولة المحادثات، بل أن المذكرة تؤكد بأن مصالح طهران مترابطة مع حلفائها كما مع حزب الله مثلا في لبنان. ولم يتم التطرق في المذكرة الى الترسانة الصاروخية لإيران، حتى ان ترامب قال بعد اعلان المذكرة ان ما من شيء يمنع إيران من امتلاك صواريخ، طالما ان الدول الاخرى في المنطقة تمتلكها.

من بين الانتقادات التي وجهت للمذكرة ان لغتها "فضفاضة ومبهمة للغاية"، ولا تعكس الالتزامات الفعلية، كما عبر اعضاء بارزون في الكونغرس مثل ليندسي غراهام وجون ثيون، عن غضبهم لعدم اطلاع الكونغرس أو الحلفاء الاساسيين كإسرائيل على تفاصيل المذكرة والملاحق السرية قبل توقيعها.

◄

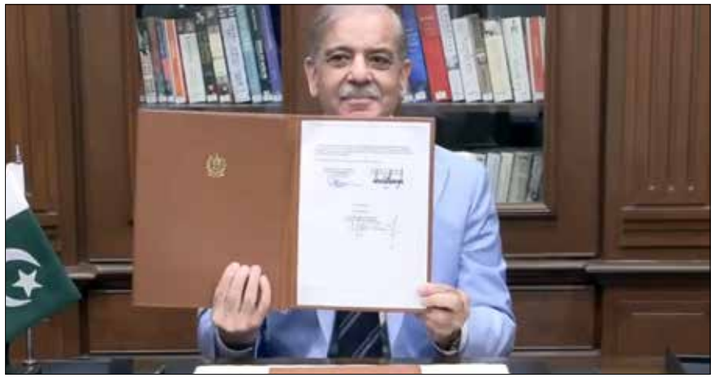

لهذا، ولأسباب أخرى كثيرة، قيل حول المذكرة واسلوب ترامب في التعامل مع مفاوضاتها وكواليسها، أن الرئيس الاميركي كان مشغولا اكثر في فكرة التسويق لنفسه سياسيا وشعبيا ومستعجل لاعلان نصر سريع لإنهاء الصراع، بدلا من صياغة تفاصيل متينة تضمن تغييرا حقيقيا في سلوك إيران.

صحيح أن اتفاق اوباما ومذكرة ترامب يتفقان على الزام إيران خطيا بعدم السعي نهائيا لتصنيع، او امتلاك، او تطوير اسلحة نووية، وتخفيف العقوبات والافراج عن الأموال المجمدة، والدور الاشرافي للوكالة الدولية للطاقة الذرية، الا أن الفارق ايضا هو ان اتفاق اوباما يحمل الصفة النهائية والشاملة والمفصلة (18 صفحة وملاحق فنية دقيقة) بينما مذكرة ترامب تمثل اطارا تفاوضيا انتقاليا مؤقتا وتمهد لمفاوضات مدتها 60 يوما.

في حين ان أطراف اتفاق اوباما متعددة، وتشمل ايضا بريطانيا وفرنسا وروسيا والصين والمانيا، فإن مذكرة ترامب جرى صياغتها والاتفاق حولها بين واشنطن وطهران، بوساطة باكستانية وادوار تسهيلية اخرى لعبتها قطر.

بينما تم التوصل الى اتفاق اوباما بعد مسار ديبلوماسي ومفاوضات مضنية استمرت 20 شهرا، فان مذكرة ترامب جاءت كنتيجة لعمليات عسكرية وحرب مباشرة. في حين ان اتفاق اوباما لم يتضمن بنودا تتعلق بإعادة الاعمار او التعويضات بسبب سنوات طويلة من العقوبات، واقتصر على اتفاق على رفع العقوبات وازالة التجميد عن الاموال، فيما حددت مذكرة ترامب انشاء صندوق لإعادة الاعمار وتنمية إيران بقيمة لا تقل عن 300 مليار دولار.

في الوقت نفسه، في اتفاق اوباما، جرى وضع قيود صارمة ومكتوبة على نسب تخصيب اليورانيوم (بحد اقصى 3,67% لمدة 15 عاما)، مع تحديد حجم المخزون المسموح به بدقة، وفرض نظام رقابة دولي تفتيشي صارم. لكن في مذكرة ترامب الحالية، لا توجد أي اشارة أو تفاصيل عن نسب التخصيب المسموح بها او مدتها، بل تكتفي بتأكيد "الوضع الراهن" وتأجيل نقاش التخلص من الترسانة المخصبة الحالية الى المفاوضات الفنية اللاحقة.

بطبيعة الحال، إن اسرائيل التي بذلت جهودا كبيرة خلال العقود الثلاثة الماضية من اجل الترويج لـ"الفزاعة" و"الخطر" الإيراني، شعرت بكثير من الصدمة ازاء المذكرة التي وصفتها بأنها بمثابة استسلام و"كارثة" تصب في صالح الإيرانيين، بدل استمرار ترامب في مساندتهم في الحرب ضدها، اذ ليس سرا ان اسرائيل كانت تراهن - وربما لا تزال - على جولة قتال جديدة.

كانت هناك الكثير من الاصوات الاسرائيلية التي ارتفعت منددة بالمذكرة بسبب تعارضها مع المصالح الامنية الاسرائيلية، وخصوصا ايضا من جانب وزراء ونواب، لأن وقف الحرب بهذا الشكل، من شأنه الاضرار بالمصير السياسي لنتنياهو وحكومته.

في إطار هذه الرؤية الاسرائيلية، تحركت اسرائيل سواء بالتواصل مع الادارة الاميركية، أو من خلال عملياتها العسكرية، من اجل فصل الجبهة اللبنانية عن مسار اسلام اباد، والابقاء على ما تسميه "حرية الحركة" في لبنان ضد حزب الله، وايضا من اجل الابقاء على الاراضي التي احتلتها في الجنوب وصولا الى مشارف مدينة النبطية.

ومن بين خيبات الاسرائيليين من المذكرة انها لا تكتفي بربط المسارين الإيراني واللبناني ووقف الحرب فيهما، وانما ايضا انها قد تجبر الاسرائيليين على بدء الانسحاب من المناطق المحتلة، وايضا خلو المذكرة من أي بنود تضمن تفكيك الترسانة الصاروخية لإيرانية، ولا التخلي عن الدعم الإيراني لحزب الله. كما اعتبر مسؤولون أمنيون اسرائيليون ان المذكرة هي بمثابة طوق نجاة لإيران لأنها منحتها الحق في بيع نفطها بشكل كامل فور توقيعها، وقبل التوصل الى اتفاق نهائي، وذلك الى جانب بدء آلية الافراج عن الاموال الإيرانية المجمدة بشكل سريع.

لكن من أكثر ما اثار جنون الاسرائيليين بحسب التسريبات الاعلامية، ان فريق ترامب ابقاهم في العتمة في ما يتعلق بمسودة النص الاخير للمذكرة حتى الساعات الاخيرة قبل توقيعها مع تلميحات من كبار المسؤولين الاميركيين، بمن فيهم نائب الرئيس جي دي فانس، بأن نتنياهو كان يحاول "تخريب" الاتفاق كلما اقتربت واشنطن وطهران من التفاهم، بما في ذلك من خلال قصف المدنيين في بيروت وغيرها.

اما في مشهد الردع الاقليمي، فإن التحول بنظر العديد من الاسرائيليين انه بينما كانت اسرائيل هي من تدفع الولايات المتحدة للضغط والتحرك ضد إيران، فإن طهران باستمرار تهديدها في إغلاق هرمز والتلويح بإطلاق الصواريخ على اسرائيل، هي من صارت تفرض على الولايات المتحدة الضغط على تل أبيب. وهذا بحسب الاسرائيليين، يشكل مساسا بقدرات الردع الاقليمية. وكما عبرت "يديعوت أحرونوت" عن ذلك بقولها ان المذكرة الإيرانية - الأميركية، تسبب تشويش الصورة العامة لإسرائيل في المنطقة، مما يحولها من "قوة اقليمية مؤثرة" الى الطرف الاضعف، وهو ما يفسر تكرار المواقف الاسرائيلية القائلة بأن تل ابيب "غير ملزمة بالاتفاق"، وسوف تتصرف وفقا لمتطلبات ما تعتبره "أمنها القومي".

هل يحتمل نتنياهو حربا لانهائية بعد، وهو امام تحدي الانتخابات خلال شهور؟

هل يحتمل ترامب استمرار الانغماس في حرب اقليمية جديدة والتناغم مع هواجس اسرائيل التي لا تتوقف، وهو ايضا على مشارف انتخابات تشرين الثاني المقبل؟

وهل تحتمل إيران مراوحة مسارات التفاوض والاستعداد للقتال لفترة طويلة؟

هذا ما قد تكشفه الاسابيع المقبلة ربما. لكن اضرار الحرب وفوائدها - ان وجدت - لكل طرف فيها، ستظل محور جدل وتجاذب لفترة طويلة.